دروس من السيرة: غزوة بدر الكبرى

(أ.عبد الملك شاعري)

أ- دراسة النصوص من السيرة

لَمّا سَمِعَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِأَبِي سُفْيَانَ الشّامِ ، نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إلَيْهِمْ وَقَالَ هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ فَاخْرُجُوا إلَيْهَا لَعَلّ اللهَ يُنْفِلُكُمُوهَا . فَانْتَدَبَ النّاسُ فَخَفّ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ وَذَلِكَ أَنّهُمْ لَمْ يَظُنّوا أَنّ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَلْقَى حَرْبًا وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ دَنَا مِنْ الْحِجَازِ يُتَحَسّسُ الْأَخْبَارَ وَيَسْأَلُ مَنْ لَقِيَ مِنْ الرّكْبَانِ تَخَوّفًا عَلَى أَمْرِ النّاسِ . حَتّى أَصَابَ خَبَرًا مِنْ بَعْضِ الرّكْبَانِ أَنّ مُحَمّدًا قَدْ اسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ لَك وَلِعِيرِك فَحَذِرَ عِنْدَ ذَلِكَ . فَاسْتَأْجَرَ ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيّ ، فَبَعَثَهُ إلَى مَكّةَ ، وَأَمَرَ أَنْ يَأْتِيَ قُرَيْشًا فَيَسْتَنْفِرَهُمْ إلَى أَمْوَالِهِمْ وَيُخْبِرَهُمْ أَنّ مُحَمّدًا قَدْ عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابِهِ . فَخَرَجَ ضَمْضَمُ بْنُ عَمْرٍو سَرِيعًا إلَى مَكّةَ.

وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي لَيَالٍ مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي أَصْحَابِهِ . خَرَجَ (يَوْمَ الِاثْنَيْنِ) لِثَمَانِ لَيَالٍ خَلَوْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ. وَكَانَ أَمَامَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَايَتَانِ سَوْدَاوَانِ: الأولي مع عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، يُقَالُ لَهَا : الْعُقَابُ وَالْأُخْرَى مَعَ بَعْضِ الْأَنْصَارِ. وَكَانَتْ إبِلُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ بَعِيرًا. وَقَالَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو يَا رَسُولَ اللهِ امْضِ لِمَا أَرَاك اللهُ فَنَحْنُ مَعَك ، وَاَللهِ لاَ نَقُولُ لَك كَمَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ لِمُوسَى : " اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّكَ فَقَاتِلاَ ، إنّا هَهُنَا قَاعِدُونَ " وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلاَ إنّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ سِرْت بِنَا إلَى بِرْكِ

الْغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَك مِنْ دُونِهِ حَتّى تَبْلُغَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِهِ .

وَلَمّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنّهُ قَدْ أَحْرَزَ عِيرَهُ أَرْسَلَ إلَى قُرَيْشٍ : إنّكُمْ إنّمَا خَرَجْتُمْ لِتَمْنَعُوا عِيرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجّاهَا اللهُ فَارْجِعُوا، فَقَالَ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ وَاَللهِ لاَ نَرْجِعُ حَتّى نَرِدَ بَدْرًا وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ سُوقٌ كُلّ عَامٍ

وَمَضَتْ قُرَيْشٌ حَتّى نَزَلُوا بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى مِنْ الْوَادِي ، خَلْفَ الْعَقَنْقَلِ وَبَطْنِ الْوَادِي ، وَهُوَ يَلَيْلُ ، بَيْنَ بَدْرٍ وَبَيْنَ الْعَقَنْقَلِ قُرَيْشٌ ، وَالْقُلُبُ بِبَدْرٍ فِي الْعُدْوَةِ الدّنْيَا مِنْ بَطْنِ يَلَيْلَ إلَى الْمَدِينَةِ . وَبَعَثَ اللهُ السّمَاءَ وَكَانَ الْوَدْيُ دَهْسًا ، فَأَصَابَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَصْحَابُهُ مِنْهَا مَا لَبّدَ لَهُمْ الْأَرْضَ وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ عَنْ السّيْرِ وَأَصَابَ قُرَيْشًا مِنْهَا مَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَرْتَحِلُوا مَعَهُ . فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُبَادِرُهُمْ إلَى السّمَاءِ حَتّى إذَا جَاءَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرٍ نَزَلَ بِهِ.

قَالَ الْحُبَابَ بْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَمُوحِ يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَمَنْزِلاً أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدّمَهُ وَلاَ نَتَأَخّرَ عَنْهُ أَمْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ قَالَ بَلْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلِ فَانْهَضْ بِالنّاسِ حَتّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ ، فَنَنْزِلَهُ ثُمّ نُغَوّرُ مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ ثُمّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَؤُهُ مَاءً ثُمّ نُقَاتِلُ الْقَوْمَ فَنَشْرَبُ وَلاَ يَشْرَبُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرّأْيِ . فَنَهَضَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ النّاسِ فَسَارَ حَتّى إذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ نَزَلَ عَلَيْهِ ثُمّ أَمَرَ بِالْقُلُبِ فَغُوّرَتْ وَبَنَى حَوْضًا عَلَى الْقَلِيبِ الّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمُلِئَ مَاءً ثُمّ قَذَفُوا فِيهِ الْآنِيَةَ .فَكَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَبِيحَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ .

عَدّلَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الصّفُوفَ فَدَخَلَهُ وَمَعَهُ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ ، لَيْسَ مَعَهُ فِيهِ غَيْرُهُ وَرَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُنَاشِدُ رَبّهُ مَا وَعَدَهُ مِنْ النّصْرِ وَيَقُولُ فِيمَا يَقُولُ اللّهُمّ إنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ الْيَوْمَ لاَ تُعْبَدْ وَأَبُو بَكْرٍ يَقُولُ يَا نَبِيّ اللهِ بَعْضَ مُنَاشَدَتِك رَبّك ، فَإِنّ اللهَ مُنْجِزٌ لَك مَا وَعَدَك . وَقَدْ خَفَقَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَفْقَةً وَهُوَ فِي الْعَرِيشِ ثُمّ انْتَبَهَ فَقَالَ أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ أَتَاك نَصْرُ اللهِ . هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعَنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَايَاهُ النّقْعُ . وَقَدْ رُمِيَ مِهْجَعٌ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطّاب بِسَهْمٍ فَقُتِلَ فَكَانَ أَوّلَ قَتِيلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ثُمّ رُمِيَ حَارِثَةُ بْنُ سُرَاقَةَ أَحَدُ بَنِي عَدِيّ بْنِ النّجّارِ وَهُوَ يَشْرَبُ مِنْ الْحَوْضِ بِسَهْمٍ فَأَصَابَ نَحْرَهُ فَقُتِلَ .

ثُمّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى النّاسِ فَحَرّضَهُمْ وَقَالَ وَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لاَ يُقَاتِلُهُمْ الْيَوْمَ رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ إلاّ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنّةَ . فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ ، أَخُو بَنِي سَلَمَةَ وَفِي يَدِهِ تَمَرَاتٍ يَأْكُلُهُنّ بَخْ بَخْ أَفَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَدْخُلَ الْجَنّةَ إلاّ أَنْ يَقْتُلَنِي هَؤُلاَءِ ثُمّ قَذَفَ التّمَرَاتِ مِنْ يَدِهِ وَأَخَذَ سَيْفَهُ فَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتّى قُتِلَ. قَالَ ابْنُ عَفْرَاءَ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا يُضْحِكُ الرّبّ مِنْ عَبْدِهِ ؟ قَالَ غَمْسُهُ يَدَهُ فِي الْعَدُوّ حَاسِرًا . فَنَزَعَ دِرْعًا كَانَتْ عَلَيْهِ فَقَذَفَهَا ، ثُمّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتّى قُتِل .لَمّا الْتَقَى النّاسُ وَدَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ قَالَ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ اللّهُمّ أَقْطَعَنَا لِلرّحِمِ وَآتَانَا بِمَا لاَ يُعْرَفُ فَأَحِنْهُ الْغَدَاةَ . فَكَانَ هُوَ الْمُسْتَفْتِحَ .

إنّ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَئِذٍ إنّي قَدْ عَرَفْت أَنّ رِجَالًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أَخْرَجُوا كُرْهًا ، لاَ حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا ، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيّ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ

ابْنِ أَسَدٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ وَمَنْ لَقِيَ الْعَبّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، عَمّ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَلاَ يَقْتُلْهُ فَإِنّهُ إِنّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا .

قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ ، أَقْبَلْت أَنَا وَابْنُ عَمّ لِي حَتّى أَصْعَدْنَا فِي جَبَلٍ يُشْرِفُ بِنَا عَلَى بَدْرٍ وَنَحْنُ مُشْرِكَانِ نَنْتَظِرُ الْوَقْعَةَ عَلَى مَنْ تَكُونُ الدّبْرَةُ فَنَنْتَهِبُ مَعَ مَنْ يَنْتَهِبُ . قَالَ فَبَيْنَا نَحْنُ فِي الْجَبَلِ إِذْ دَنَتْ مِنّا سَحَابَةٌ فَسَمِعْنَا فِيهَا حَمْحَمَةَ الْخَيْلِ فَسَمِعْت قَائِلًا يَقُولُ أَقْدِمَ حَيْزُومُ فَأَمّا ابْنُ عَمّي فَانْكَشَفَ قِنَاعُ قَلْبِهِ فَمَاتَ مَكَانَهُ وَأَمّا أَنَا فَكِدْت أَهْلَكَ ثُمّ تَمَاسَكْتُ .عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا ، قَالَ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ بَصَرُهُ لَوْ كُنْت الْيَوْمَ بِبَدْرٍ وَمَعِي بَصَرِي لأَرَيْتُكُمْ الشّعْبَ الّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ الْمَلاَئِكَةُ لاَ أَشُكّ فِيهِ وَلاَ أَتَمَارَى .

قال أبو دَاوُد الْمَازِنِيّ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا ، إنّي لأَتّبِعُ رَجُلًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ لِأَضْرِبَهُ إِذْ وَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلَيْهِ سَيْفِي ، فَعَرَفْتُ أَنّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي ، عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَبّاسٍ ، قَالَ كَانَتْ سِيمَا الْمَلاَئِكَةِ يَوْمَ بَدْرٍ عَمَائِمَ بِيضًا . وَكَانَ شِعَارُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمَ بَدْرٍ أَحَدٌ أَحَدٌ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ جَوْفِ اللّيْلِ وَهُوَ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ ، يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ وَيَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَيَا أُمَيّةُ بْنَ خَلَفٍ ، وَيَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ، فَعَدّدَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي الْقَلِيبِ : هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبّكُمْ حَقّا ، فَإِنّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبّي حَقّا ؟ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ يَا رَسُولَ اللّهِ أَتُنَادِي قَوْمًا قَدْ جَيّفُوا ؟ قَالَ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُونِي. إنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ يَوْمَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ بِئْسَ عَشِيرَةُ النّبِيّ كُنْتُمْ لِنَبِيّكُمْ ، كَذّبْتُمُونِي وَصَدّقَنِي النّاسُ وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النّاسُ وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النّاسُ ثُمّ قَالَ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبّكُمْ حَقّا ؟ .

ثُمّ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عِنْدَ الْفَتْحِ عَبْدَ اللهِ ابْنَ رَوَاحَةَ بَشِيرًا إلَى أَهْلِ الْعَالِيَةِ ، بِمَا فَتَحَ اللهُ عَزّ وَجَلّ عَلَى رَسُولِهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ وَبَعَثَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ إلَى أَهْلِ السّافِلَةِ ثُمّ أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَافِلًا إلَى الْمَدِينَةِ ، وَمَعَهُ الْأُسَارَى مِنْ الْمُشْرِكِينَ.

وأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ – حَتّى إذَا خَرَجَ مِنْ مَضِيقِ الصّفْرَاءِ نَزَلَ عَلَى كَثِيبٍ بَيْنَ الْمَضِيقِ وَبَيْنَ النّازِيَةِ – يُقَالُ لَهُ سَيْرٌ – إلَى سَرْحَةٍ بِهِ . فَقَسَمَ هُنَالِكَ النّفَلَ الّذِي أَفَاءَ اللهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ عَلَى السّوَاءِ ثُمّ ارْتَحَلَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَتّى إذَا كَانَ بِالرّوْحَاءِ لَقِيَهُ الْمُسْلِمُونَ يُهَنّئُونَهُ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ لَهُمْ سَلَمَةُ بْنُ سَلاَمَةَ مَا الّذِي تُهَنّئُونَنَا بِهِ ؟ فَوَاَللهِ إنْ لَقِينَا صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ثُمّ قَالَ أَيْ ابْنَ أَخِي ، أُولَئِكَ الْمَلاَ . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : الْمَلاَ الْأَشْرَافُ وَالرّؤَسَاءُ. وإنّ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حِينَ أَقْبَلَ بِالْأُسَارَى فَرّقَهُمْ بَيْنَ أَصْحَابِهِ وَقَالَ اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى

فَكَانَ مِمّنْ سُمّيَ لَنَا مِنْ الْأُسَارَى مِمّنْ مُنّ عَلَيْهِ بِغَيْرِ فِدَاءٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ : أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرّبِيعِ بْنِ عَبْدِ الْعُزّى بْنِ عَبْدِ شَمْسِ مَنّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعْدَ أَنْ بُعِثَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِفِدَائِهِ . وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ (بْنِ يَقَظَةَ): الْمُطّلِبُ ابْنُ حَنْطَبِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عُبَيْدَةَ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ ، كَانَ لِبَعْضِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ ، فَتَرَكَ فِي أَيْدِيهِمْ حَتّى خَلّوْا سَبِيلَهُ . فَلَحِقَ بِقَوْمِهِ . وكَانَ فِدَاءُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةَ آلاَفِ دِرْهَمٍ لِلرّجُلِ إلَى أَلْفِ دِرْهَمٍ إلاّ مَنْ لاَ شَيْءَ لَهُ فَمَنّ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَيْهِ. وكَانَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ الْخَيْلِ فَرَسُ مَرْثَدِ بْنِ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيّ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ السّبَلُ وَفَرَسُ الْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو الْبَهْرَانِيّ وَكَانَ يُقَالُ لَهُ بَعْزَجَةُ وَيُقَالُ سَبْحَةُ وَفَرَسُ الزّبَيْرِ بْنِ الْعَوّامِ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ الْيَعْسُوبُ .

فَلَمّا انْقَضَى أَمْرُ بَدْرٍ أَنْزَلَ اللهُ عَزّ وَجَلّ فِيهِ مِنْ الْقُرْآنِ الْأَنْفَالَ بِأَسْرِهَا ، فَكَانَ مِمّا نَزَلَ مِنْهَا فِي اخْتِلاَفِهِمْ فِي النّفَلِ حِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلّهِ وَالرّسُولِ فَاتّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} فَكَانَ عُبَادَةُ بْنُ الصّامِتِ إذَا سُئِلَ عَنْ الْأَنْفَالِ قَالَ فِينَا مَعْشَرَ أَهْلِ بَدْرٍ نَزَلَتْ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النّفَلِ يَوْمَ بَدْرٍ فَانْتَزَعَهُ اللهُ مِنْ أَيْدِينَا حِينَ سَاءَتْ فِيهِ أَخْلاَقُنَا ، فَرَدّهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَسَمَهُ بَيْنَنَا السّوَاءِ وَكَانَ فِي ذَلِكَ تَقْوَى اللهِ وَطَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَصَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ.

ثُمّ قَالَ تَعَالَى فِي رَمْيِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إيّاهُمْ بِالْحَصْبَاءِ مِنْ يَدِهِ حِينَ رَمَاهُمْ {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنّ اللهَ رَمَى} أَيْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِرَمْيَتِك ، لَوْلاَ الّذِي جَعَلَ اللهُ فِيهَا مِنْ نَصْرِك ، وَمَا أَلْقَى فِي صُدُورِ عَدُوّك مِنْهَا حِينَ هَزَمَهُمْ اللهُ {وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا} أَيْ لِيُعَرّفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ فِي إظْهَارِهِمْ عَلَى عَدُوّهِمْ وَقِلّةِ عَدَدِهِمْ لِيَعْرِفُوا بِذَلِكَ حَقّهُ وَيَشْكُرُوا بِذَلِكَ نِعْمَتَهُ . قَالَ تعالى{إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ} أَيْ لِقَوْلِ أَبِي جَهْلٍ: اللّهُمّ أَقْطَعَنَا لِلرّحِمِ وَآتَانَا بِمَا لاَ يُعْرَفُ فَأَحِنْهُ الْغَدَاةَ. وَالِاسْتِفْتَاحُ الْإِنْصَافُ فِي الدّعَاءِ . يَقُولُ اللهُ جَلّ ثَنَاؤُهُ {وَإِنْ تَنْتَهُوا} أَيْ لِقُرَيْشٍ {فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ} أَيْ بِمِثْلِ الْوَقْعَةِ الّتِي أَصَبْنَاكُمْ بِهَا يَوْمَ بَدْرٍ {وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} أَيْ أَنّ عَدَدَكُمْ وَكَثْرَتَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَإِنّي مَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْصُرُهُمْ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ.

وقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نُصِرْت بِالرّعْبِ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُعْطِيت جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَأُحِلّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تُحْلَلْ لِنَبِيّ كَانَ قَبْلِي. وَحَضّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التّوَاصُلِ وَجَعَلَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ أَهْلَ وِلَايَةٍ فِي

الدّينِ دُونَ مَنْ سِوَاهُمْ وَجَعَلَ الْكُفّارَ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ثُمّ قَالَ {إلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} أَيْ إلاَّ يُوَالِ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنَ مِنْ دُونِ الْكَافِرِ وَإِنْ كَانَ ذَا رَحِمٍ بِهِ

{تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ} أَيْ شُبْهَةٌ فِي الْحَقّ وَالْبَاطِلِ وَظُهُورِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِتَوَلّي الْمُؤْمِنِ الْكَافِرَ دُونَ الْمُؤْمِنِ. ثُمّ رَدّ الْمَوَارِيثَ إلَى الْأَرْحَامِ مِمّنْ أَسْلَمَ بَعْدَ الْوَلَايَةِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ دُونَهُمْ إلَى الْأَرْحَامِ الّتِي بَيْنَهُمْ فَقَالَ {وَالّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ} أَيْ بِالْمِيرَاثِ {إنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

فَجَمِيعُ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَمَنْ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِسَهْمِهِ وَأَجْرِهِ ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا. فَجَمِيعُ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مَنْ شَهِدَهَا مِنْهُمْ وَمَنْ ضُرِبَ لَهُ بِسَهْمِهِ وَأَجْرِهِ ثَلَاثَةُ مِئَةِ رَجُلٍ وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلاً ، مِنْ الْمُهَاجِرِينَ ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا ، وَمِنْ الْأَوْسِ وَاحِدٌ وَسِتّونَ رَجُلاً ، وَمِنْ الْخَزْرَجِ مِئَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلاً .

وَكَانَ فَرَاغُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ بَدْرٍ فِي عَقِبِ شَهْرِ رَمَضَانَ أَوْ فِي شَوّالٍ.

ب-خلفية النصوص

- كانت سرية عبد الله بن جحش على مفترق الطريقين لسياسة الإسلام إزاء قريش ولاتخاذ موقف حاسم من الحرب والسلام، رمى فيها واقد بن عبد الله التميمى بسهم، فقتل عمرو بن الحضرمى، فكان أول دم أراق المسلمون. وفيها نزلت الآية الكريمة التى تتعلق بالقتال فى الأشهر المحرمة عند العرب، وعلى أثرها شرع قتال الذين يفتنون المسلمين عن دينهم، ويصدون عن سبيل الله.

- فقد جعل المسلمون يفكرون من بعدها تفكيرا جديا فى استخلاص أموالهم من قريش بالغزو والقتال، لأن قريشا حاولت إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه أنهم قتلوا فى الشهر الحرام، حتى لقد أيقن النبى (صلى الله عليه وصلم) أن لم يبق فى مصانعتهم أو فى اتفاق معهم رجاء.
- وقد خرج أبو سفيان فى أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة فى تجارة كبيرة يقصد الشام، وهى التجارة التى أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى العشيرة. لكنهم إذ بلغوها كانت قافلة أبى سفيان قد مرت بها ليومين من قبل وصولهم إليها، إذ ذاك اعتزم المسلمون انتظارها فى عودتها.
- ولما تحين النبى (صلى الله عليه وسلم) انصرافها من الشام بعث طلحة بن عبد الله، وسعيد بن زيد ينتظران خبرها بالحوراء.
- ولكن النبى (صلى الله عليه وسلم) لم ينتظر رسوليه إلى الحوراء، وما يأتيان به من خبر العير، فقد ترامى إليه أنها عير عظيمة، لذلك ندب المسلمين وقال لهم: هذه عير قريش، فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها. وخف بعض الناس وثقل بعض، وأراد جماعة لم يسلموا أن ينضموا طمعا فى الغنيمة، فأبى النبى (صلى الله عليه وسلم) عليهم الانضمام.
- أما أبو سفيان، فكان قد اتصل به خروج النبى (صلى الله عليه وسلم) لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام، فخاف أن يعترضه المسلمون حين عودته بعد أن ربحت تجارته، ولم يكن من قريش فى حراسة العير إلا ثلاثون أو أربعون رجلا، فبعث ضمضم بن عمرو الغفارى مسرعا إلى مكة ليستنفر قريشا إلى أموالهم. وصل ضمضم إلى بطن الوادى، وجعل يصيح. يا معشر قريش: اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها. الغوث الغوث! وما لبث أبو جهل حين سمعه أن صاح بالناس من عند الكعبة يستنفرهم.

- أما النبى عليه السلام فقد خرج فى أصحابه من المدينة، لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة. وكانت أمام المسلمين فى مسيرتهم رايتان سوداوان، وكانت إبلهم سبعين بعيرا جعلوا يعتقبونها. وكانت عدة من خرج مع النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى هذه الغزوة خمسة وثلثمائة رجل. وانطلقوا حتى أتوا واديا يقال ذفران، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشا قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم. إذ ذاك تغير وجه الأمر. لم يبق هؤلاء المسلمون أمام أبى سفيان وعيره والثلاثين أو الأربعين معه، بل هذه مكة خرجت كلها للدفاع عن تجارتها.
- فهب المسلمون أدركوا أبا سفيان وتغلبوا على رجاله وأسروا منهم من أسروا واقتادوا إبله وما عليها. فلن تلبث قريش أن تدركهم، وتسترد الغنيمة منهم أو تموت دونها، ولكن إذا عاد النبى (صلى الله عليه وسلم) من حيث أتى طمعت قريش، وطمعت يهود المدينة فيه، واضطر إلى موقف المصانعة، واضطر أصحابه إلى أن يحتملوا من أذى يهود المدينة مثل ما احتملوا من أذى قريش بمكة.
- فالنبى (صلى الله عليه وسلم) استشار الناس وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش، فأدلي أبو بكر وعمر برأيهما، ثم المقداد، ثم قال: سعد بن معاذ الذى كان من الأنصار: (..... لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله) فقال النبى (صلى الله عليه وسلم): سيروا و ابشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين. والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم (المشركين) فارتحلوا جميعا لملاقاة المشركين الذين كان عددهم بين التسعمائة والألف.
- كذلك أن أشراف قريش جميعا خرجوا لمنع النبي، فقال النبي (صلي الله عليه وسلم) لقومه: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها" إذن فلابد له ولهم أمام قوم يزيدون عليهم فى العدد ثلاثة أضعاف أن يشحذوا عزائمهم، وأن يوطنوا علي الشدة أفئدتهم ونفوسهم، وأن ينتظروا موقعة حامية الوطيس لا يكون النصر فيها

إلا لمن ملأ الإيمان بالنصر قلبه. (حياة محمد/ محمد حسين هيكل ص: ١٦٧-١٦٩)

ج- الدروس والعبر

لاريب أن غزوة بدر الكبرى كانت نقطة الانطلاق نحو تأسيس دولة إسلامية فى شبه الجزيرة العربية، فينبغي أن ندرسها باعتبارها أول غزوة غزاها رسول الله صلي الله عليه وسلم، لنستخرج منها ما تنطوي عليه من دروس وعظات، فهنا نذكر بعض الدروس منها بإجمال فيما يلي:

١- إن الدافع الأصلى لخروج المسلمين مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يكن القتال والحرب، وإنما كان الدافع هو الاستيلاء على عير قريش القادمة من الشام تحت قيادة أبى سفيان، غير أن الله سبحانه وتعالى أرادة لعباده غنيمة أكبر، ونصرا أعظم، فأبعد عنهم العير التى كانوا يطلبونها، وأبدلهم بها نفيرا لم يكونوا يتوقعونه.

٢- وعندما ندرس كيفية جلوس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى أصحابه، ليشاورهم فى الأمر الذى فوجئوا به بعد أن أفلت منهم العير، وظهر لهم النفير العظيم المسلح بالسلاح الكامل، نجد لها دلالتين، لكل منهما أهمية بالغة:

الدلالة الأولى: التزام النبى (صلى الله عليه وسلم) بمبدأ التشاور مع أصحابه، وإذا درسنا حياته (صلى اله عليه وسلم) لوجدنا أنه كان يلتزم هذا المبدأ فى كل أمر لا نص فيه من كلام الله تعالى، ومن أجل هذا أجمع المسلمون على أن الشورى فى كل ما لم يثبت فيه نص ملزم من الكتاب أو السنة أساس تشريعي دائم لايجوز إهماله. أما ما ثبت فيه نص من الكتاب والسنة، فلا شأن لشورى فيه، ولاينبغى أن يقضى عليه بأى سلطان.

الدلالة الثانية: إن مشروعية فرض الجهاد من حيث الأصل، حكم تبليغى لايخضع لأى نسخ أو تبديل، كما أن أصل مشروعية الصلح والمعاهدات ثابت لايجوز إبطاله أو اجتثاثه من أحكام الشريعة الإسلامية.

٣- وعند دراسة ما أجاب به سعد بن معاذ نعلم أن المبايعة التى أرتبط بها الأنصار مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مكة قبل الهجرة، لم تكن إلا مبايعة مع الله تعالى، ولم يكونوا يتصورون وهم يلتزمون الدفاع عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حينما يهاجرإليهم إلا دفاعا عن دين الله تعالى وشريعته، ولذلك كان جواب سعد رضى الله عنه: " لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق .. فأمض لما أردت فنحن معك" أى فنحن نسير معك وفق معاهدة أعظم من تلك التى اتفقنا عليها معا، فى بيعة العقبة.

٤- وقد جاء فى كتب السيرة أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لما نزل قريبا من بدر جرى بين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والحباب بن المنذر حديث فى شأن المكان الذى نزل فيه (وهو حديث صحيح الإسناد) وهذا الحديث يدل على أن تصرفات النبى (صلى الله عليه وسلم) ليست كلها من نوع التشريع، بل هو فى كثير من الأحيان يتصرف من حيث إنه بشر من الناس يفكر ويدبر كما يفكر غيره، ولا ريب أننا لسنا ملزمين باتباعه فى مثل هذه التصرفات، فمن ذلك نزوله عليه الصلاة والسلام فى المكان الذى اختاره فى هذه الغزوة، فقد وجدنا كيف أن الحباب أشار بالتحول عنه إلى غيره، و وافقه عليه السلام فى ذلك. وذلك بعد أن استوثق الحباب رصى الله عنه أن اختيار النبى (صلى الله عليه وسلم) لذلك المكان ليس بوحى من عندالله.

٥- لقد رأينا أن اطمئنان النبى (صلى الله عليه وسلم) وإيمانه بالنصر، إنما كان تصديقا منه للوعد الذى وعد الله به رسوله، ولا شك أن الله لايخلف الميعاد، وربما

أوحى إليه بخبر النصر فى تلك الموقعة. أما الاستغراق فى التضرع والدعاء، وبسط الكف إلى السماء، فتلك هى وظيفة العبودية التى خلق من أجلها الإنسان، وذلك هو ثمن النصر فى كل حال. فهذه العبودية التى اتخذت مظهرها الرائع فى طول دعاء النبى (صلى الله عليه وسلم) وشدة الاستعانة به أن يؤتيه النصر، هى الثمن الذى استحق به ذلك التأييد الإلهي فى تلك المعركة. وقد نصت على ذلك الآية الكريمة إذ تقول:

(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) (الأنفال:٨/٩)

لقد كانت نتيجة العبودية والخضوع لله تعالى، عزة قعساء، ومجدا شامخا خضع لهما جبين الدنيا بأسرها، ولقد كانت نتيجة الطغيان والجبروت الزائفين قبر من الضيعة والهوان أقيم لأربابها.

٦- انطوت بدر على معجزة من أعظم معجزات التأييد والنصر للمسلمين الصادقين. فقد أمد الله المسلمين فيها بملائكة يقاتلون معهم. وهذه حقيقة ثبتت بدلالة صريحة من الكتاب والسنة الصحيحة. كما روى ابن هشام أن النبى (صلى الله عليه وسلم) خفق خفقة فى العريش ثم انتبه فقال: "أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على النقع" ورواه البخارى أيضا بلفظ قريب منه. (فقه السيرة النبوية/ الدكتور محمد سعيد رمضان اليوطى ص: ١٥٨-١٦٣).

فهذه الدروس يجب أن لاننساها أبدا، أن هناك أهمية للتضرع لله والاستعانة به، فالإنسان إذا فوض أمره إلي الله استحق التأييد والنصرة من عنده، كما رأينا أن الأقلية المؤمنة انتصرت علي أغلبية المشركين فى غزوة بدر الكبري.